تفسير

مزمور التوبة

المزمور الخمسون

لكبار آباء الكنيسة القديسين

يوسف حبيب

مقدمة

فى كتابنا هذا إخترنا المزمور الخمسين الذى يُصلى به نهاراً وليلا ، فهو كالدواء الشافى لكل الأوجاع ، أو الطيب الكثير الثمن فى الكنائس والاجتماعات ، ينطلق كالبخور الزكى الرائحة من الأفواه فى الصلوات فيشتمه الآب الصالح فى كل الأوقات .

هذا المزمور تفرح به الملائكة ، أما الشياطين فتولى الادبار وهى ترتعد لدى سماعه ، فهو ينهض المتوانين من رقاد الخطية والكسل إلى التوبة ، ويدعو التائبين إلى طلب الرحمة من المخلص مرجع ثقيل الأحمال والمتعبين .

رتبت الكنيسة تلاوته فى افتتاح كل صلاة حتى باستمرار تلاوته وتفهم معانيه يكون منبهاً للحرص والحذر من السقوط لمن كان قائماً ، وللرجاء وعدم اليأس لمن كان ساقطاً ولو كان منغمساً فى أقبح أنواع الخطايا والرذائل ، إذ حينما ننهض ونبتدىء بالصلاة للحال داود النبى المعلم المختبر يتلقانا ويعلمنا طريق التوبة الصحيح بمزموره هذا وهو المزمور الخمسون .

يوسف حبيب

المزمور الخمسون[1]

(١) إرحمنى يا الله كعظيم رحمتك وكبكثرة رأفاتك تمحو إثمى (٢) تغسلنى كثيراً من إثمى ومن خطيئتى تطهرنى (٣) لأنى أنا عارف بإثمى وخطيئتى أمامى فى كل حين (٤) إليك وحدك أخطأت والشر قدامك صنعت لكى تتبرر فى أقوالك وتغلب إذا حوكمت (٥) لأنى هأنذا بالإثم حبل بى وبالخطايا اشتهتنى أمى (٦) لأنك هكذا قد أحببت الحق إذ أوضحت لى خفايا حكمتك ومستوراتها (٧) تنضح على بزوفاك فأطهر، تغسلنى فابيض أكثر من الثلج (٨) تسمعنى سروراً وفرحاً فتبتهج العظام المتواضعة (٩) اصرف وجهك عن خطاياى وامح كل آثامى (١٠) قلباً نقياً اخلق فىّ يا الله وروحاً مستقيماً جدده فى أحشائى (١١) لاتطرحنى من أمام وجهك وروحك القدوس لا تنزعه منى (١٢) امنحنى بهجة خلاصك وبروح رئاسى اعضدنى (١٣) فاعلم الأثمة طرقك والمنافقون إليك يرجعون (١٤) نجنى من الدماء يا الله إله خلاصى فيبتهج لسانى بعدلك (١٥) يا رب تفتح شفتى فيخبر فمى بتسبيحك (١٦) لأنك لو أردت الذبيحة لكنت أعطى لكنك لا تسر

(١) حسب الترجمة عن النص القبطى .

بالمحرقات (١٧) الذبيحـــة لله روح منسحق ، القلب المنكسر والمتواضع لايرذله الله (١٨) أحسن يا رب بمسرتك على صهيون ولتبن أسوار أورشليم (١٩) حينئذ تسر بذبائح العدل تقدمة ومحرقات حينئذ يقدمون على مذبحك العجول ـ الليلويا .

† † †

رجعنا فى تفسير هذا المزمور إلى « متى هنرى » وإلى الكثير من آراء الآباء القديسين الأوائل أمثال القديسين كيراس الكبير وأثناسيوس الرسولى وافرآم السريانى والقديس يوحنا ذهبى الفم ،

رجعنا إلى كتاب تفسير المزامير البطريرك الأورشليمى اوثيميوس (١٧٨٧ م) وكتاب تفسير مزامير التوبة السبعة المطبوع فى دير القديس يوحنا الصابغ بالشوير سنة ١٧٥٣ م ـ وهكذا تحلى الكتاب بتعاليم الآباء الزكية وأصبح بمثابة كتاب روحى متصل الحلقات ، تنقل الإنسان من حياة الخطية إلى الندم والاعتراف والانسحاق الكامل... إلى حياة الشكر الذى خلصنا من خطايانا .

ويمكن تلخيص المواضيع فيما يلى :

١ ـ طلب الرحمة .

٢ ـ مغفرة الإثم .

٣ ـ توبة داود واعترافه الكامل الصريح والدقيق .

٤ ـ فداحة الإثم الذى يعترف به .

٥ ـ عدم تبرير إثمه .

٦ ـ طلب التطهير الكامل .

٧ ـ السلام والتجديد .

٨ ـ محل نعمة الله .

٩ ـ الفرح بخلاص الرب .

١٠ ـ التبشير بالخلاص .

١١ ـ ملازمة الصلاة والتسبيح فى خشوع .

١٢ ـ الصلاة لأجل الآخرين .

١٣ ـ الشكر والطاعة .

† † †

مقدمة تفسير المزمور

إن هذا المزمور من أهم مزامير التوبة[1] المعبرة عن إهتمام الإنسان الخاطىء التائب ورغباته .

وفى توجيه حديثنا فى رهبة وخشوع إلى الله لا نجد ما نعمله الا أن نشكره ... لكن نظراً لآثامنا وجهالاتنا ينبغى أن نأتى إلى عرش النعمة نادمين ونعترف بآثامنا ونلتمس نعمة الله .

---

(١) مزامير التوبة سبعة وهى :

١ ـ المزمور السادس : « يا رب لا توبخنى بغضبك ... » .

٢ ـ المزمور الحادى والثلاثون : حسب النسخ المطبوعة هو المزمور ٣٢ « طوبى للذى غفر إثمه وستر خطيته ... » .

٣ ـ المزمور السابع والثلاثون : هو المزمور ٣٨ مطلعه : « يا رب لا توبخنى بسخطك ولا تؤدبنى بغيظك لأن سهامك قد انتشبت فى » .

٤ ـ المزمور الخمسون وهو المزمور ٥١ .

٥ ـ المزمور المائة والواحد هو المزمور ١٠٢ « يارب استمع صلاتى وليدخل إليك صراخى ... » .

٦ ـ المزمور ١٢٩ هو المزمور ١٣٠ « من الأعماق صرخت... » .

٧ ـ « ١٤٢ « ١٤٣ « يارب اسمع صلاتى ... » .

ولن نجد صلاة معبرة أكثر مناسبة من هذا المزمور الذى يسجل فيه داود ندمه على خطيئته مع إمرأة اوريا الحثى ، وكانت هذه أعظم خطيئة إرتكبها . وفيه يعترف بإثمه ويطلب المغفرة ...

إن الذين تنقلت ضمائرهم بأية خطية جسيمة يستطيعون بالثقة فى مراحم الرب يسوع المسيح مخلص العالم أن يصلوا هذا المزمور مراراً وتكراراً ، ويمكن أن نطبقه على نفوسنا بالنسبة لخطايانا الكثيرة التى نرتكبها كل يوم .

ان هذا المزمور يشير إلى قصة محزنة جداً ، قصة سقوط داود ، وقد أقامه الرب لأنه هو الذى يقيم الساقطين .

إن الخطية التى يندبها فى هذا المزمور هى الخطية الشنيعة التى ارتكبها مع زوجة جاره - خطية لا يمكن أن نتحدث عنها أو نفكر فيها دون حزن وحسرات .

إن خطية داود سجلت تحذيراً وإنذاراً للجميع حتى ان من يظن انه قائم فليحذر لئلا يسقط . إن الندم المعبر عنه فى هذا المزمور إنما جاء عن طريق ناثان الذى أرسله الله اليه لكى يقنعه بإثمه بعد أن استمر حوالى تسعة شهور دون أن يحس بفداحته .

القديس يوحنا ذهبى الفم يقول فى هذا الصدد :

« سمح الله لصديقين أن يسقطوا فى بعض ذنوب بشرية لكن ليس هو الذى اسقطهم - انه ترك ضمائرهم تفعل بمقتضى هواها وحسب ارادتها وميلها كمثل بنى اسرائيل الذين اختارهم الله من بين الأمم فإنهم لما لم يثبتوا على إيمانهم واخطأوا إلى الله قد عاملهم بما يستحقون . وحتى نفس الانبياء العظام فإن موسى لما لم يمجد الله عندما انفجر الماء من الصخرة لأمة اليهود عديمى الشكر قال له الله حقاً إنك لن تبصر أرض الميعاد ولن تدخلها البتة ...

توبة داود النبي

بعد سقطة داود العظيمة أتى ناثان اليه واحتج بأن له قضاء يطلب الحكم فيه وقال له هذه قضيتي : كان واحد فقيراً وآخر غنياً ، والغني له أنطاع من الماشية وحظائر مختلفة ، وأما الفقير فليس له إلا نعجة واحدة ، ولمحبته لها كان يسقيها من الكأس التي كان يشرب منها ويطعمها من خبزه أيضاً ، وإذا رقدت كانت ترقد في حجره ، فأتى غريب إلى ذلك الغني . . . فبخل الغني بنعاجه الكثيرة عند ورود الغريب واختلس نعجة ذلك الفقير قسراً ونحرها له . فكيف الحكم في هذه القضية يا أيها الملك ؟ . فظن داود أن النبي يعني بهذا عن غيره . . . فقال : « حي هو الرب الإله ان الذي صنع هذا الصنيع المنكر يستحق الموت حالا » ، وأن يرد عوض تلك النعجة أربعة أضعاف . فماذا قال ناثان له حينئذ ؟ . فعل كالطبيب الذي لم يجس الجرح جساً بطيئاً بل فاجأه بغتة وجر الورم المنتفخ بسرعة ليشعر بألم الوجع سريعاً وهو ينظفه وأجابه قائلا : أنت هو ذاك الغني . فأجابه على الفور معترفاً : إني أخطأت للرب إلهي ، ولم يرتفع قلبه ولم يجبه قائلا : من تكون أنت حتى توبخني ومن أرسلك إليّ لتتظاهر معي هكذا وبأية جسارة وجرأة قلت ما قلته . لم يقل

داود شيئاً من هذا بل حين عرف ذنبه اقر معترفا وقال إني أخطأت للرب فاذا جرى بعد ذلك ؟ أجابه ناثان قائلا : والرب غفر لك خطيئتك

صلاة للقديس الناسيوس الرسولي

« . . . تحنن على ضعفي أنا المسكين يارب وحلني من رباط الخطية وارزقني أن أمشي قدامك مبسوط القامة بلا عيب وأكون محلولا من وثاق الجحيم والموت المؤبد .

وكما قبلت توبة داود النبي من بعد السقطة العظيمة وأقمته منها على يدي ناثان النبي إذ قال له إن الله قد غفر لك خطيئتك وأعطاه علامة المغفرة كذلك إفعل معي أنا البائس واغفر لي الذنب العظيم والسقطة الكبيرة التي سقطتها والتي لا يعرفها غيرك ولم يطلع عليها سواك فإني ضعيف وليس لي مثل ناثان ليقيمني ولكني انا اتكل على رحمتك يا إله ناثان وأطرح نفسي قدامك، لأنك رب الأنبياء ورب الشفعاء إرفع صرعتي وتجاوز عن زلتي ولا تؤاخذني بخطاياي واحفظني ياسيدي من الإثم والخطية إلى آخر عمري ...

وكما قبلت صلوات الأنبياء والأبرار من مطلع الشمس إلى مغربها في كل موضع ، وأعطيتهم سؤالهم مع مغفرة ذنوبهم في

السر والعلانية ، الصغيرة والكبيرة ، أطلب اليك يا سيدى يسوع المسيح أن تغفر لى كل خطية . . . وإقبل صلاتى يارب فى كل موضع أدعوك فيه فى كل وقت واجعلنى أهلا أن أكون مع أحبائك فى الفرح الدائم قدام وجهك ...

يارب عمر كرمك الذى قد أخربته بجهلى وطغيان العدو لى، ولا تدع أرضك التى طهرتها . معمودينك المقدسة أن ينبت فيها الشوك ...لكن أرسل إليها ملاك السلامة لينقيها ويطهرها ثانية من كل نجاسة وأعمال الشيطان فإنك أنت الرب القوى العزيز ولك ينبغى التسبيح إلى الأبد آمين » .

† † †

إن داود النبى بعد أن اقتنع بإثمه سكب نفسه أمام الله فى الصلاة طالباً الرحمة والنعمة ، وحينما يرجع الساقطون فإلى السيد إلههم الذى ارتدوا عنه وهو وحده يستطيع أن يشفى أوجاعهم.

تحرك قلبه نحو الله بهذا المزمور إعترافاً منه بالندم، والذين يندمون على آثامهم ندامة حقيقية لا يخجلون من الاعتراف بندامتهم إذ أنهم **بعد ان فقدوا شرف الابرياء لهم ان يشتهوا شرف التائبين**

فى توبة داود أسوة حسنة فهو يقود الخائنين الى النـدم بقدوته ويعلمهم فى ندمهم ما ينبغى أن يعملوه ، وما ينبغى أن يقولوه .

ونجد فى هذا المزمور سؤاله المتواضع عدد ١ و ٢ ، صلاته التى تشبه صلاة ذلك العشار التائب حيث قال « اللهم إرحمنى أنا الخاطئ » لو ١٨ : ١٣ .

إن داود لاعتبارات كثيرة كانت له امتيازات عظيمة . فلم يعمل كثيراً فقط بل قاسى أيضاً كثيراً من أجل الله . وبعد أن اقتنع بإثمه لم يحاول أن يضع أعماله لرديئه منها والحسنة فى الميزان ولم يفكر قط فى أن خدماته الكثيرة تستطيع أن تفعل شيئاً ، لكنه يهرب بجملته ويطرح نفسه أمام مراحم الله غير المحدودة ويعتمد على ذلك لينال الصفح والسلام فهو يقول « إرحمنى يا الله كعظيم رحمتك وكـكثرة رأفاتك تمحو إثمى »

١ – طلب مراحم الله

يقول إرحمنى يا الله ليس حسب شرف مولدى وليس حسب خدماتى العامة كبطل ، أو شرف مركزى العام كملك ...

أجل ان التائب الحقيقى لا يشير إطلاقاً إلى أى امر من هذه

الأمور لكن يصرخ فقط « إرحمنى كرحمتك ، لأجل رحمتك ، ليس لى شىء أتوسل به إليك ، بل حسب صلاحك الذى يرثى للبؤساء ...

وداود إذ يشعر بشقائه يصرخ ارحمنى ليس فقط بمراحمك ورأفاتك لكن حسب وفرة هذه المراحم وغزارتها. إن شقائى عظيم جداً ولذلك ألتجىء الى مراحمك العظيمة ... إنها رأفات كثيرة للصفح عن خطايا كثيرة ، تكثر لنا الغفران إذ تكثر التعديات والعصيان لأنه حيثما يكثر الإثم تكثر هناك نعمتك .

إن النبى لما كان جرحه عظيما فإنه الفحص من شافى النفوس والأجساد دواء عظيما وهو كثرة الرحمة والرأفة .

حقا إن الرحمة الإلهية لعظيمة وإن الرأفات الابوية كثيرة جداً . فمراحم الله غزيرة بهذا المقدار لأنه يعطينا فوق كل ما كنا نتجاسر أن نطلبه منه ويظهر ذلك فى مثل الإبن الضال فإنه لم يطلب من أبيه سوى أن يصفح عن خطيئته ويقبله كأجير، أما أبوه فلم يصفح عنه فحسب بل أمر أن يلبسوه حلتـــه الأولى ويضعوا خاتماً فى يده ويذبحوا له العجل المسمن . فى الحقيقة لا توجد رحمة ورأفة أعظم من تجسد ابن الله غافر الخطايا والذنوب الذى ذبح لأجلنا .

ويعطينا داود فى هذا درساً صـــريحاً عن مفهوم السعادة الحقيقية فإنه وإن كان مالكا لكافة الخيرات الزمنية إلا انه يرى نفسه شقياً جداً ويقر بذلك أمام الرب ، ومن هذا يتضح لنا مقدار خداع هذا العالم بمسراته الزائلة فإنه لا سعادة حقيقية أو فرح دائم إلا فى البعد عن الخطية والالتصاق بالله ، ولهذا نجد داود النبى فى مزموره الشافى والشلاثين يطوّب الذين لا عيب فيهم ، السالكين بحسب ناموس الرب لا المنشرفين بالخيرات والجاه والمراكز الرفيعة والمال... ويقول أحد الآباء القديسين : « لا تحزن على أى أمر فى هذه الدنيـــا لكن إحزن فقط إن أخطأت الى الله » .

ماهى الرحمة الخاصة التى يطلبها ؟

أنها مغفرة الإثم « امح كل معاصى » كما يمحى ويشطب الدين من السجل ، حينما يكون المدين قد سدد الدين أو يكون الدائن قد تنازل عن دينه ، يقول إمح كل آثامى حتى لا تظهر فتطلب حكما ضدى وحتى لا تقف أمام وجهى ليسكثر إرتباكى وفزعى .

† † †

٢ – مغفرة الإثم

« تغسلني كثيراً من إثمي ومن خطيتي تطهرني »

أي اغسل يا رب نفسي من دنس إثمي برحمتك ونعمتك ، لأنه من الدنس الظاهري فقط تستطيع المياه أن تنظف ، فأكثر من الحميم لأن التلوث عميق وأراني غارقاً في الإثم . ليس من الهين أن أتطهر بسهولة فاغسلني كثيراً ، اغسلني جيداً ، طهرني من إثمي ، حتى يعود إلى نفسي جمالها وإشراقها الأول .

الخطية تدنسنا وتصيرنا قبيحي المنظر وممقوتين في نظر الله القدوس وهي تسبب اضطراب نفوسنا وتجعلنا غير لائقين للعشرة مع الله في النعمة أو المحبة لكن حينما يصفح الله عن تعدياتنا ويطهرنا منها عندئذ نكون مقبولين لديه وتصبح نفوسنا مطمئنة ونجد راحة عند الاقتراب إليه .

إن داود أكد في اعترافه الأول أن خطيئته قد غفرت « الرب رفع عنك خطيئتك لا تموت » ٢ صم ١٢ و١٣ لكنه يصلي ويطلب اغسلني ... طهرني ... الخ إثمي ...

إن أولئك الذين غفرت خطاياهم ينبغي عليهم أن يصلوا دائماً لكي تستقر أقدامهم على صخرة التوبة ولكي يكون الصفح ماثلا بوضوح أكثر أمامهم .

إن الله سامح داود لكن داود يلح في طلب الصفح كإنسان يشعر أنه غير مستحق لذلك الصفح (عدد ١ و ٢) .

† † †

يقول القديس كيرلس الكبير إن في قوله « إغسلني كثيراً من إثمي » رمز دال على معمودية المسيحيين ، ان اليهود كان لهم في الشريعة العتيقة غسل ينظف لا النفس بل الجسد كما قال بولس الرسول في الاصحاح ٩ من العبرانيين « ان كان دم الثيران والتيوس ورماد العجلة إذا نضحت على النجسين يقدس إلى طهارة الجسد فكم بالحري يكون دم المسيح ... » فهذا المزمور يتضمن أيضاً نبوة داود النبي عن مغفرة الخطايا بالمعمودية المقدسة .

كيف كانت اقرارات داود بالندامة ؟ عدد ٣ – ٦ .

« لأن إثمي أنا عارف به وخطيتي أمامي في كل حين ... »

٣ – توبة داود واعترافه الكامل الصريح والدقيق

١ – كان داود صريحاً في اعترافه بجريمته أمام الله . « إثمي أنا عارف به ... » كان لديه إحساس شديد وشعور عميق بخطيئته حتى أنه كان دائماً يفكر فيها بحزن ، ولم يكن ذلك عن فترات بسيطة ولم تكن عواطفه وقتية عابرة « خطيتي أمامي في كل حين »

أى هى دائما أمامى ، أمامى كعدو يتهمنى فتجعلنى أتضع دائماً . إنها تذلنى وتخجلنى وتخيفنى دائما . لم ينم ليلة نط دون أن يتأمل فى حزن تلك الرياضة الغير سعيدة على سطح منزله حيث رأى بتشبع . لم يجلس إلى المائدة . . . أو يرسل خادمه فى مهمة أو يمسك قلماً بيده إلا وكانت قصـــة أوريا والرسالة الغادرة التى أرسلها والإنذار القاتل الذى كتبه أمامه . . . إن أعمال الندامة والتوبة تتكرر مع انها عن نفس الخطية .

من النافع جداً أن تكون خطايانا دائماً أمامنا حتى نكون بتذكر ماضى خطايانا دائماً متضعين ومسلحين ضد التجارب مسرعين فى العمل . متجلدين تحت الصليب .

† † †

إنه من الخطورة بمكان ألا يستقر التائب ويرسب زمناً طويلا فى الاسحاق بل ينبغى أن يسلك فى حياة التدقيق الشديد بعد الاعتراف ويكون يقظاً كالجندى الساهر وإن تسللت إليه بعض الأفكار المشبطة يقاومها ويستبسل فى قتالها .

قال اوثيثيموس بطريرك اورشليم « المقصود بقول النبى انا عارف بالمى وخطيتى امامى فى كل حين ان الذى يتذكر خطيئته دائما يخجل ، ومن يخجل يندم ومن يندم يعترف ثم يحترس من الوقوع فى غيرها فينال مغفرة الخطيئة ، وقديما قال اشعياء النبى ص ٤٣ : ٢٥ « انا هو الماحى ذنوبك . . . وخطاياك لا اذكرها ، وفى المزمور ٣٢ قال المرنم «قلت اعترف للرب بذنبى وانت رفعت آثام خطيئتى ... »

ويعطينا داود النبى هنا درساً صريحاً فى عدم دينونة الآخرين فقد وضع أمامه خطيئته ليبكيها على الدوام ناظراً إليها لا إلى خطايا الآخرين . غير مشتغل بالقذى الذى فى عين القريب .

كانت الخطية وراءه قبل أن يأتى إليه ناثان النبى مبكتاً ، أما بعد توبته فهى أمامه ليلا ونهاراً .

وكما يقول أحد الآباء القديسين : من يترك ميتاً له فى بيته ويذهب لينوح على ميت غيره ...

٢ ـ أقر داود بتعدياته : « لك وحدك أخطأت » وانه وإن كان عظيما لكن لأنه ارتكب خطـــأ جسيما كان عليه أن يخضع لتأديب التائب .

٣ ـ أوضح أن شرف الإنسان لا يستطيع أن يخلصه من الخطية ، فلم يستطع شرف داود أن يخلصه ، الأغنياء والفقراء يتقابلون هنا . إنه يوجد قانون واحد للتوبة لكليهما . الأكابر يحاكمون حالا وينبغى أن يحكموا على أنفسهم الآن .

داود كان رجلا طيب القلب جداً ونظراً لأنه اخطأ فإنه طوعا يضع لنفسه موضعها . هذا الموضع هو موضع التائب ، لأنه إذا اخطأ أعاظم الرجال ينبغي أن يعطوا قدوة أعظم للعدامة .

٤ - إن اعتراف داود كان دقيقاً وخاصاً - يقول إني صنعت هذا الشر الذي أنا ملوم عليه الآن وبسببه يخلق ضميري .

ويقول البطريرك أوثيميوس متأملا في معنى « لك وحدك أخطأت .

(ا) إن حسناتك لي وعطاياك لا تحصى لأنك أقمتني من رعاية الغنم وصيرتني ملكا ونصرتني على أعدائي ونجيتني من شرور كثيرة ، وأما أنا فقد غفلت عن هذه كلها وخالفت أوامرك ، يا إلهي وخالقي ، ولم اخطىء إلى الناس بمقدار ما أخطأت إليك ، فلك وحدك أخطأت .

(ب) إن خطيتي ولو كانت قد خفيت عن الناس لكنها لن تخفى عليك أيها العالم بالخفايا جميعها .

(ج) انك وحدك الحاكم الوحيد الذي تستطيع أن تقضي عليّ كمالك غير خاضع لشرائع الناس بل لشريعتك فلك وحدك السلطان لأن تحكم عليّ لتجاوزي شريعتك .

(د) ان الناس تخلقهم ورياؤهم لا يبالون بأني أخطأت تودداً الي ، لكن أنت البريء من الرياء الذي لا تشاء ولا تريد هلاك مخلوقك قد ويختني ، فأنا لك وحدك أخطأت .

† † †

وهنا نتأمل الرؤوس الرئيسية لخطايا ضعفاتنا والظروف الخاصة لخطايانا الثقيلة .

٤ - انه يشعر بفداحة الاثم الذي يعترف به

كما فاه الإبن الضال حيث قال : « أخطأت إلى السماء وقدامك » لو ١٥ : ١٨ فهو يندب خطيئته :

(ا) انها ارتكبت ضد الله وان الإساءة وقعت في حقه . ذلك حق لأنه بفعل الشر بإرادتنا ننكر سلوكه وعمله معنا ، فلا أوامره نطيعها ولا مواعيده لنستمع اليها ، لا نقدسه ، نتصرف بغش وبدون طهارة ، ومن هنا وجد يوسف الصديق الدليل ضد الخطية (تك ٣٩ : ٩) . وعرف داود هول الاثم .

(ب) انه أخطأ ضد بتشبع وأوريا ، أخطأ ضد نفسه وجسده وعائلته ضد مملكته وضد كنيسة الله وكل هذه الأمور أذلته ووضعته ، وهو لم يخطىء الى كل هؤلاء بمثل ما أخطأ به

ويقول القديس امبروسيوس : إن النبي يقول اعترف لك يا إلهي مقراً انني لك وحـــدك أخطأت والشر قدامك صنعت وذلك لكيما تظهر أنت عادلا وصادقا وتغلب إذا تحاسرت أنا على إنكار الإثم الذى فعلته .

ويقول القديس أغريغوريوس : كأن النبي يقول ، انى اقتس منك بقلب متوجع أن ترحمنى كعظيم رحمتك ولا ترذلنى بل تكمل مواعيدك الإلهية وذلك لكيما تصدق فى أقوالك أى لكيما يتضح ظاهراً صدق مواعيدك الإلهية لأنك أولا وعدت بوجه العموم انك تقبل الخاطىء بالرحمة والعفو إن رجع إليك بطهارة القلب، ولأنك وعدتنى بالخصوص انك تحفظ لى رحمتك إلى الدهر وتثبت ملكى على الدوام بأشخاص ذريتى ، وأن المسيح الرب عتيد أن يولد من نسلى ...

يقول النبي بعد ذلك « لأنى هأنذا بالإثم حبل بى ... » .

تعالى يا نفسى انظرى إلى الصخرة التى منها نحت وحينئذ تجدين انك بالإثم صورت ، لو كنت تفهمت ذلك لما تصرفت هكذا إبان التجربة. ان ادعائى بأن ميلى سابق إلى التجربة باطل لأنه مع العناية واليقظة والسهر على نفسى ومؤازرة نعمة الله كان يمكن أن أنجو من التجربة ...

يتكلم داود عن الجسد فيقول إنه بالإثم صور ، قد شوهته الخطية ، ليس كما خلقته يد الله ، لكن كما من أبوينا الأولين ، فإننا دخلنا إلى العالم ومعنا طبيعة فاسدة ، تدهورت من الطهارة والاستقامة الأولى لصورة تعسة ، ولدينا نحاس الخطية منذ ولدنا، فى أجسادنا وفى أنفسنا بذور الخطية وعلينا لطخة الإثم ، هذه هى الخطية الأصليه . انها قديمة مثل أصولنا وهى السبب فى كل تعدياتنا الفعلية ، هى الجهل الذى يوجـــد فى قلب الانسان والاشتياق للشر والتخلف عن الصلاح ...

أيها السيد أنت لم تكن سبب خطيئتى، ولا لوم عليك ولكن على أنا وحدى اللوم كله . مراراً كثيرة حذرتنى أن أكون أميناً فلو وضعت ذلك موضع الاعتبار لما وقعت فى مثل هذا الخطأ ... لو حافظت على النعمة التى أعطيتنى إياها لظللت سليما معافى من الخطية .

ويقول بعض الآباء أن المقصود بذلك هو استدرار مراحم الله فكأن النبي يقول بما أننا ولدنا بهذا الشقاء وفينا فرط الميل إلى الخطية الصادرة من خطية أبوينا الأولين فمن ثم نستوجب الشفقة الإلهية والحنو الأبوى لضعف طبيعتنا البشرية ، فأطلب

ويقول القديس امبروسيوس : إن النبي يقول اعترف لك يا إلهي مقراً انني لك وحـــدك أخطأت والشر قدامك صنعت وذلك لكيما تظهر أنت عادلا وصادقا وتغلب إذا تحاسرت أنا على إنكار الإثم الذى فعلته .

ويقول القديس أغريغوريوس : كأن النبي يقول ، انى اقتس منك بقلب متوجع أن ترحمنى كعظيم رحمتك ولا ترذلنى بل تكمل مواعيدك الإلهية وذلك لكيما تصدق فى أقوالك أى لكيما يتضح ظاهراً صدق مواعيدك الإلهية لأنك أولا وعدت بوجه العموم انك تقبل الخاطىء بالرحمة والعفو إن رجع إليك بطهارة القلب، ولأنك وعدتنى بالخصوص انك تحفظ لى رحمتك إلى الدهر وتثبت ملكى على الدوام بأشخاص ذريتى ، وأن المسيح الرب عتيد أن يولد من نسلى ...

يقول النبي بعد ذلك « لأنى هأنذا بالإثم حبل بى ... » .

تعالى يا نفسى انظرى إلى الصخرة التى منها نحت وحينئذ تجدين انك بالإثم صورت ، لو كنت تفهمت ذلك لما تصرفت هكذا إبان التجربة. ان ادعائى بأن ميلى سابق إلى التجربة باطل لأنه مع العناية واليقظة والسهر على نفسى ومؤازرة نعمة الله كان يمكن أن أنجو من التجربة ...

يتكلم داود عن الجسد فيقول إنه بالإثم صور ، قد شوهته الخطية ، ليس كما خلقته يد الله ، لكن كما من أبوينا الأولين ، فإننا دخلنا إلى العالم ومعنا طبيعة فاسدة ، تدهورت من الطهارة والاستقامة الأولى لصورة تعسة ، ولدينا نحاس الخطية منذ ولدنا، فى أجسادنا وفى أنفسنا بذور الخطية وعلينا لطخة الإثم ، هذه هى الخطية الأصليه . انها قديمة مثل أصولنا وهى السبب فى كل تعدياتنا الفعلية ، هى الجهل الذى يوجـــد فى قلب الانسان والاشتياق للشر والتخلف عن الصلاح ...

أيها السيد أنت لم تكن سبب خطيئتى، ولا لوم عليك ولكن على أنا وحدى اللوم كله . مراراً كثيرة حذرتنى أن أكون أميناً فلو وضعت ذلك موضع الاعتبار لما وقعت فى مثل هذا الخطأ ... لو حافظت على النعمة التى أعطيتنى إياها لظللت سليما معافى من الخطية .

ويقول بعض الآباء أن المقصود بذلك هو استدرار مراحم الله فكأن النبي يقول بما أننا ولدنا بهذا الشقاء وفينا فرط الميل إلى الخطية الصادرة من خطية أبوينا الأولين فمن ثم نستوجب الشفقة الإلهية والحنو الأبوى لضعف طبيعتنا البشرية ، فأطلب

اليك يا الله ان تنظر إلىّ وترحمنى بما انى انسان شقى ضعيف جداً ومولود بالآثام .

« لانك أحببت الحق ... »

أيها السيد انت تريد الحق وتحبه ... إن داود هنا يتشجع فى توبته على رجاء ان يتفضل الله فيقبله ويجعله صادقا فى عزمه لا يعود الى الخطيئة مرة أخرى فهو يريد الصدق فى الانسان الداخلى وألا يكون فى روحه غش .

لم يشك داود قط فى قبول الله له وكان يتوسل ان يحقق الله رغباته وهى أن يجعله فى سريرته يعرف الحكمة فيقتنيه اليها ويمنح التصورات السابقة فكأنه يقول : أعطنى أن أعرف الحكمة، لحيثما يسكون الحق يعطى الله الحكمة . وأولئك الذين يحاولون أداء أعمالهم بإخلاص يعلمهم الله واجباتهم .

ويقول القديس كيرلس الكبير ان الحق هو السيرة البارة الخالية من الرياء ، وأيضا هو ربنا يسوع المسيح الذى يمنح الطهارة ، ليس مثل طهارة الشريعة العتيقة التى بالغسل كانت تنظف الجسد فقط ، بل طهارة حقيقية تطهر أدناس الخطية المنجسة للنفس والجسد .

ويقول القديس يوحنا ذهبى الفم ان النبى عرف بسابق المعرفة أسرار سيدنا يسوع المسيح وبيعته المقدسة وتقدم وأخبر بها فى مزاميره الإلهية فلذلك يذكر النبى ان الرب ارتضى ان يوضح له غوامض أسراره الإلهية يستعطفه بذلك الى الشفقة عليه والعفو عن خطيئته ، فكأنه يقول تعطف علىّ يارب مشفقاً وانظر الىّ بالعفو راحماً ، وذلك لانك أنت إلهى قد أحببت صدق قلبى واستقامته قبل ان يتدنس بالخطية ، ولذلك أوضحت لى غوامض حكمتك ومستوراتها ، أى اهلتنى ان تكشف لى أسرار حكمتك الفائقة المستترة عن الناس ... الأسرار التى رسمت حكمتك الإلهية أن تصير فى حينها التى لا يمكن لاحد أن يعرفها ان لم تكشفها له بالوحى الإلهى ، فأنت صنعت معى ما يحق لك من الصلاح والخير ومنحتنى نعمة النبوة لأعرف ما قد أخفيته عن غيرى .

وماذا يطلب داود بعد ذلك ؟

٦ – التطهير الكامل

« تنضح علىّ بالزوفا فأطهر ، تغسلنى فأبيض أكثر من الثلج »

يطلب أن يغسله الله من آثامه ومن الأدناس التى تلطخ بها ، إصفح عن خطاياى وهب لى أن تمحى خطاياى حتى أعود اتمتع بالخيرات التى فقدتها وأضعتها بخطاياى ، وهو يريد أن يشير هنا إلى أولئك الذين كانوا نجسين بالجسد ، فبرش الماء أو الدم أو كليهما عليهم بربطة الزوفا كان يصرح لهم بالاختلاط بالناس .

يا سيـــد ليتنى اتحقق من عودتى الى مكانتى الأولى ودالتى لديك . . . إلى امتيـــاز الشركة معك مثل أولئك الذين كانوا يرجعون إلى التمتع بامتيازاتهم السابقة ... تنضح علىّ بزوفاك... دم المسيح المحبب إلى نفسى بإيمان ثابت كما كان ماء التطهير برش الزوفا . إنه دم المسيح الذى يطهر من الأعمال الميتة ، يطهر من جرم الخطية ويخلص من غضب الله ...

إذا كان دم المسيح هو الذى يطهر من كل شر فإننا نكون أطهاراً بالحقيقة (عب ١٠ : ٢) .

إذا كنا نغتسل من هذا النبع المفتوح فإننا نصير أكثر من الثلج بياضاً ، لسنا مسامحين فقط لكننا مقبولون ، هكذا هم أيضاً المبررون (أشعياء ١ : ١٨) .

« إن كانت خطاياكم كالقرمز تبيض مثل الثلج » .

انه يصلى أيضاً أن تمحى خطيته لكى تكون له راحة ، إنه لا يطلب أن يستريح قبل أن يتطهر أولا ، لأنه إذا نزع الإثم وهو أصل الحزن المرير - يستطيع أن يصلى فى ثقة .

† † †

كان على الأبرص (الذى يشير إلى الخاطىء) أن يشق ثيابه ويكشف رأسه وينادى « نجس نجس » وينفصل عن الشعب ويقيم وحده حتى يشفى (لا ١٣ : ٤٥) ، وكان يطهر بخشب الأرز والقرمز والزوفا (لا ١٤ : ٤) .

وشجر الأرز وهو مرتفع يشير إلى العلو .

والزوفا عشب منخفض يشـــير إلى الاتضاع الذى به شفاء المرض .

يرى القديس امبروسيوس أن النبى يشير بهذا النص إلى إحدى غوامض الحكمة ومستوراتها وهى سر العماد المقدس الذى كان عتيداً أن يتطهر به الناس فى العهد الجديد .

ويقول البطريرك أوثيميوس فى تفسيره انه ورد فى سفر الخروج ص ١٢ ان الله قد أمر بنى اسرائيل بأن يضحوا عتمة أبوابهم بدم الحمل بزوفا ليمنعوا به المهلك من الدخول وكان دم

الحل إشارة لدم ربنا يسوع المسيح حمل الله الذى ذبح لتطهير خطايانا ، أما الزوفا فيها انها من العشب الحار تغسل الأدناس الظاهرة والباطنة فتكون رسماً للمعمودية المقدسة المطهرة لأدناس الخطايا بحرارة الروح القدس ، تغسلنا وتبيضنا أفضل من الثلج، لأن الذين يحفظون المعمودية من غير دنس يشرقون كالشمس فى ملكوت الله. فهذا الأمر هو الذى قد اتضح للنبى من الفرائض والمستورات .

٧ – طلب السلام والتجديد

« تسمعنى سروراً وفرحاً فتبتهج عظامى المتواضعة »

عدد ٨ -

أعطنى سلاماً راسخاً ، السلام الذى لا يستطيع العالم أن يمنحه والذى يملأ القلب فرحاً وسروراً ، إمنحنى قوة النفس القائمة من الخطية التى تتشدد بالتوبة ، أعطنى الفرح بخلاصى من خطيتى حتى أن العظام التى سحقها الحزن بالتأديب والوعيد تفرح ، وليس فقط إنها تجبر ثانية ويذهب عنها الألم لكنها تستريح وتطمئن ، وكما يقول النبى « تزهر مثل العشب » .

ويقول القديس ايرونيموس إنه حين تحس النفس التقية بأنها

خلصت من الخوف لأجل خطاياها وأنها ساكنة فى نعمة الله ومحبته تتمتع بالسلامة التى تفوق كل عقل ، وهذا هو صوت التهليل والخلاص الذى يسمع فى مساكن الأبرار أى فى ضمائرهم حسب قول النبى (مز ١١٧) .

إن النبى كان قد سمع هذا الصوت حين حقق له ناثان النبى من قبل الله ان خطيئته غفرت إلا أن هذا الحنان الإلهى ضاعف توجعه وندمه فإنه أحطاً إلى الله الرحوم إلى هذا الحد ، ولذلك السحقت عظامه ومن ثم شرع يلتمس من الله ان يرضى فيسمعه أيضاً هذا الصوت ، صوت السلامة والفرح ويملأ قلبه من السرور الصادر عن حلول روحه فى باطنه ، الفرح الذى هو من ثمار الروح القدس ، فكأنه يهتف قائلا انك بعد ان تغسلنى وتطهرنى تمنحنى هذا الاحسان أيضاً فتفرح عظامى المنسحقة .

ويقول القديس مار افرآم السريانى فى ميمر له :

« . . . أما القديسون فالرب يحفظ عظامهم وواحدة منها لا تكسر ، وأما الخطاة فكل عظامهم تكسرت . . . عظامى هى الإيمان والرجاء والمحبة التى تلتصب عليها نفسى ، هذه كلها انسحقت منى فلم اعمد اقو على وقوف او قيام فمد يدك والمس

نفسي لأقوم وأحل جسدي فاقدم لك ذبيحة حية مرضية . . . » .

ويلاحظ :-

ا - ان الم القلب المنكسر حقيقـــة بالخطية يمكن تشبيهه بالكسور ، فعند الاصابة بالجروح والكسور يكون الرباط وعند الشفاء والراحة ينزع هذا الرباط .

ب - ان في الراحة والفرح الناشئين عن الصفح عن الخاطىء التائب انتعاشاً يشبه الراحة التامة من أعظم الآلام بعد الكسر ، فبعد فك الاربطة والتئام الكسور يشعر المصاب بمنتهى الفرح والراحـــة .

التجـــديد

ان يصلي من أجل النعمة المقدسة وهذه يحتاج إليها كل تائب حقيقي كما يحتاج إلى الصفح والسلام « قلباً نقياً اخلق فيَّ يا الله » (عدد ١٠) .

انه لا يسأل يا سيد احفظ صيتي وسمعتي . . . أخطأت لكن أكرمني أمام الناس . . . لا - ان اهتمامه العظيم كان ليطهر قلبه الفاسد فإن الخطية التي ارتكبها كانت دليلا على عدم نقاوة قلبه ، لذلك فهو يصلي قلباً طاهراً أخلق فيَّ يا الله . . .

لقد رأى الآن أكثر من ذي قبل مقدار دنس قلبه ويبكي على ذلك في حزن ، لكنه يرى انه ليس في مقدوره أن يغيره ، لذلك فإنه يطلب من الله الخالق (الذي من عمله ان يخلق) ان يخلق فيه قلباً نقياً - هو فقط الذي صنع القلب ويستطيع ان يجدده وليس شيء غير مستطاع لديه . ان القلب من أصل خلقته نقي لأن الله خلقه وكل ما خلقه الله فهو جيد ونقي . . . ويقول حزقيال النبي ص ٣٦ « وأعطيكم قلباً جديداً وروحاً جديداً . . . » . انه خلق العالم بكلمة قدرته وهو خالق الطبيعة وانه بكلمة قدرته تكون أنقياء .

« انتم أنقياء بسبب الكلام الذي كلمتكم به » يو ١٥ : ٣ .

« قدسهم في حقك ، كلامك هو حق » يو ١٧ : ١٧ .

داود يطلب صارخاً يا سيد روحاً مستقيماً جـــدده فيَّ . أصلح قوتي الروحية واجعلني استقيم مرة أخرى جدد روحاً دائمـــاً فيَّ .

ان داود اكتشف عدم الثبات في نفسه لذلك فهو يصرخ ياسيد امسكني من الآن فصاعدا حتى لا ابتعد عنك كما حدث لي .

٨ - عمل نعمة الله

انه يسأل استمرار عطف الله عليه ودوام عمله تعالى فيـــه

(عدد ١١) ، ويسأل ألا يسقط من نعمته فيصرخ قائلا :

† لا تطرحنى من قدامك كإنسان تمقته ولا تستطيع النظر إليه ، يسأل ألا يطرحه من حمايته وعندما يسير يكون معه ويكون هو تحت ارشاد حكمته وفى حفظ قوته .

انه لا يستخف بالأحكام الوقتية التى فاه بها ناثان نذراً بأنها سوف تقع عليه .

لا توبخنى بغضبك - إذا دخل السيف بيتى لا يبرح ملازما له لكن أعطنى أن تكون إلهى أهرب إليك وقت محنتى .

† « روحك القدوس لا تنزعه منى » .

أيقن أنه بخطيئته قد أحزن الروح القدس وجعله باثساً حزينا فهو يطلب ألا يحرم من نعمة الله ، وإذ عرف ذلك فكأنه يطلب فى قوة :

يا سيد ، خذ منى ما تشاء ، عرشى ، حياتى ، لكن روحك القدوس لا تنزعه منى ، وليدم روحك القدوس فىَّ ليصلح فعل خدامتى وليمنع انزلاقى إلى الأثم .

† † †

ان العبد يحتسب انصراف سيده عنه خسارة عظيمة، كذلك الابن إذا حول أبوه نظره عنه، وأيضاً الجندى إذا أقصاه الملك عنه ، أما الله اذا طرح الإنسان فيكون فى ذلك هلاكه الأبدى .

٩ - الفرح بخلاص الرب

داود يسأل ليسترد النعم الإلهية . إنه يجد أثرين سيئين لخطيئته :

ا - الخطية جعلته حزيناً لذلك يقول : « امنحنى بهجة خلاصك » عدد ١٢ .

إن أولاد الله لا يعرفون فرحاً حقيقياً غير فرح الخلاص بالرب والرجاء بالحياة الأبدية . إذ نخطىء بإرادتنا نحرم أنفسنا من هذا الفرح ونحرم ذواتنا منه ، شهاداتنا تكون غير واضحة وأمالنا غير ثابتة .

حينما ندم ندامة حقيقية نرجو من الله ان يعيد الينا هذا الفرح - الذين يزرعون بالدموع بالفرح يحصدون - يحصدون من أفراح خلاص الرب عندما تأتى أوقات الفرج .

ب - الخطية جعلته ضعيفاً ولذلك يسأل إمسكنى بروحك القدوس ، إن مريع الاستجابة السقوط سواء فى الخطية أو فى

اليأس فاسندنى أيها السيد . . . إذا تركتنى لذاتى سوف اغرق ، لذلك امسكنى بروحك . . . يا سيد دع روحك يوحى لنفسى بالمبادىء الكريمة الشريفة حتى افعل دائما ما يلائم روح الرئاسة اى القوة الذى اضفته الخطية ، وكلما نكون اكثر استمتاعا بواجباتنا نكون اكثر استمراراً فى أدائها .

يطلب ان يعطيه الله الفرح بخلاصه من خطيئته ، يطلب قوة النفس التى استرخت من الخطية وبعدئذ يستطيع ان يعلم ويهدى الآخرين إلى طريق الرب .

ان النبى بعد ما التمس من الرب مغفرة خطيئته وفيض النعمة والثبات فيها شرع يلتمس قائلا : امنحنى بهجة خلاصك ، فكأنه يضرع نحو الرب قائلا : انى فقدت بالخطية النعمة والسرور وسكون الضمير ، ابتهل اليك ان ترد لى بهجة خلاصك وان تعضدنى بروح رئاسى وهو الروح القدس .

ويقول البطريرك الاورشليمى اوثيميوس : « إن الإنسان إذا سقط فى خطية فإنه يفقد بهجة قلبه ويمشى كئيباً حزيناً من شدة توبيخ ضميره ، لكن لما يخلص من الخطية بالتوبة ترد إليه بهجة الخلاص ، ولأجل هذا إن كلمة امنحنى محررة باللغة اليونانية اعد إلى بهجة خلاصك .

إن خلاص البشر هو ربنا ومخلصنا يسوع المسيح فالنبى يسأل الله الآب أن يبهج العالم بحلول إبنه فيه متجسداً

أما (الروح الرئاسى) فهو الروح القدس ومواهبه التى تؤيدنا فى عمل الصلاح .

١٠ – التبشير بالخلاص

« فأعلم الأثمة طرقك والمنافقون إليك يرجعون » عدد ١٣ .

إن داود نفسه كان متعدياً ومخالفاً وعلى هذا يمكنه ان ينذر المخالفين عن خبرة ، وإذ لمس رحمة الله عن طريق ندامته يستطيع ان يعلم الآخرين طرقه ، ويستطيع ان يعلم الذين أخطأوا ان يسلكوا نفس الطريق الذى سلكه ، وان يتضعوا فيعترفون بذنوبهم ويطلبون وجه الله . . .

ان داود كان قد شكك رعيته بسقوطه فى الخطية وبتوبته نزعت هذه الشكوك ، وعلم جميع الخطاة الى منتهى الاجيال طرق الرب – اى افعال رحمته وعدله المختلفة ، لان جميع طرق الرب رحمة وحق ، فمن ثم هتف قائلا : فأعلم الأثمة طرقك .

انه يعلم المخالفين ويخبرهم بما صنعه الله معه ، فإن التائبين ينبغى ان يكونوا مبشرين[1] .

(١) هكذا كان القديس بولس وهكذا كانت المرأة السامرية .

« الخطاة اليك يرجعون » . فلا ييأسون من مراحم الله فى الرجوع . الهدف العظيم الذى يقصده من تعليم المخلفين هو تحويلهم الى الله ـ سعداء هم الذين يعملون على تحقيق هذا الهدف .

١١ – ملازمة الصلاة والتسبيح

يقول النبى بعدئذ : « نجنى من الدماء . . . . » عدد ١٤ .

داود يصلى لكى يتخلص من الخطية ، خطية الدم ، الخطية التى سقط فيها وهى قتل أوريا .

يقول القديس أثناسيوس الرسولى تفسيراً لذلك :

« إن النبى يتضرع مبتهلا إلى الله وطالباً النجاة من سفك دم أوريا ، أو انه يطلب إبطال ذبائح البهائم التى كانت مفروضة فى شريعة موسى ، ولأن سائر الخطايا والشهوات تحصل من حركة الدم فيطلب النبى التبرير منها » ...

والمقصود بالمعنى الروحى فى الدماء جميع الخطايا لأن الخطايا تصدر عن الشهوات الردية والدم يتسلط فى الشهوة خاصة .

يقول القديس امبروسيوس : ان الخطية تغلق فم الخاطىء ، لكن الله تعالى لفمه يفتح شفتى الصديق بقوله : « اهتفوا أيها الصديقون بالرب ، بالمستقيمين يليق التسبيح . . . مز ٣٣ : ١ .

فداود يصرخ افتح يارب شفتى اللتين أغلقتها خطاياى وحينئذ يخبر فى بتسبحتك أى برحمتك وعدلك .

يقول ليخبر فى بتسبحتك . أعمالك كافية للتسبيح فليتسع قلبى لذلك التسبيح . إن الذنب أغلق شفتيه ومنع لسانه عن الصلاة ـ لم يستطع لسبب الخزى والخطية أن يأتى إلى حضرة الله الذى يعرف ما اقترفه لأن قلبه يدينه ، وخطيئته أغلقت فمه وسببت فتوره فى تمجيد الله .

لذلك فهو يصلى أيها السيد افتح فمى، أعد قلبى للتسبيح ثانية.

إلى أولئك المربوطة السنتهم بسبب الخطية تأكيد غفران خطاياهم . إنه يناديهم لتنفتح شفاههم فتلهجون بالتسبيح معه كما فعل زكريا لو ١ : ٦٤ (وفى الحال انفتح فمه وتكلم وبارك الله).

إن الخطية تعقل اللسان وتغلق الفم وهو يطلب أيضا عودة الدالة بينه وبين الله ... أعطنى يارب أن اتقدم إليك بدالة ومن غير خجل اسبحك ...

قدم داود لله ذبيحة التائب ، القلب المنسحق ، القلب الذى عرف ان الله يسر به [1] ، وعرف جيداً أن تقدمة ذبائح

(١) الانسحاق الدائم هو العلاج الصحيح لعدم النكسة الروحية .

الحيوانات كانت فى ذاتها لا قيمة لها فى نظر الله ، لا تسر بالمحرقات ، عدد ١٦ .

الذين اقتنعوا تماماً بيؤسهم وبالخطر المحدق بهم بسبب الخطية لا يألون جهداً للخلاص منها، إن ذبائح الطاعة والاسحاق هى هذه التى يطلبها الله كتضحيات ، وهو لا يسر بالذبائح الأولى مهما كانت قيمتها وثمنها ، لأنه لما كانت هذه الذبائح غير كافية للتكفير عن الخطية ، لذلك فإنها لا يمكن أن ترضى الله أكثر من كونها تعبيراً للمحبة وأداء الواجب نحوه ، لقد عرف داود مدى تقبله للتوبة الحقيقية ، « الذبيحة لله روح منسحق ، عدد ١٧ . القلب المنكسر المنسحق هو ما ينظر اليه الله ويحتاج اليه الإنسان فى كل تدريبات التوبة والندامة .

فإن سأل سائل قائلا ألم يكن النبى عائشاً حينما كانت ذبائح الحيوانات تقدم إلى الله تعالى بأمره فكيف إذن يقول لله إنك لا تسر بالمحرقات ؟ . إن هذه الذبائح الظاهرة لا ترضيه بدون الذبيحة الباطنة من تذلل القلب والسحاقه ، وكأن النبى ينظر أيضاً إلى الذبيحة الواحدة الضرورية لخلاصنا .

وأيضاً هذه الذبائح ليست مرضية أمام الله إذا ما تقدمت من الخطاة حسب قول أشعياء النبى « لا تعودوا تأتون بتقدمة

باطلة . البخور هو مكرهة لى ... أيديكم ملآنه دما ... ، أشعياء ١ : ١٣ - ١٥ ، ونظراً إلى الوفاء لأجل الخطايا لأنه « لا يمكن أن دم ثيران وتيوس يرفع خطايا . بمحرقات وذبائح الخطية لم سر ، عب ١٠ : ٤ - ٦ .

ولهذا يصرخ النبى ويقول « لأنك لو آثرت الذبيحة لقد كنت الآن أعطى لكنك لا تسر بالمحرقات ...

ويوضح النبى ما هية الذبيحة المقبولة بقوله فالذبيحة لله روح منسحق . انها القلب المنسحق من حكة الله، الصابر والمحتمل عصا تأديب الله، القلب الخاضع لله ، ما أعظم سرور الله بقلب كهذا؟ إنه بالحقيقة الذبيحة المرضية المقبولة عنده ، ذبيحة التسبيح هى المرضية أمامه لأنها تحترق على مذبح القلب بنار المحبة .

كسر جسد المسيح هو التقدمة الوحيدة لمغفرة خطايانا ، ولا توجد ذبيحة تستطيع أن تمحو الخطية سوى كسر قلوبنا من أجل الخطية ... ليس إشبـــاع أجسادنا وتدليلها يرضيه ، بل إماتتها هو الذى يرضيه .

الذبيحة الصادرة عن القلب المنسحق هى تقديم الكرامة والمجد لله مع الخزى والخجل من خطايانا هاتفين مع داود النبى « لك يا سيد البر أمالنا خزى الوجوه ... » دا ٩ : ٧ .

كانت الذبيحة تربط وتسيل دمها وتحرق ، كذلك يربط قلب التائب بإدانته ـ يدمى بالإنكسار والانسحاق ثم يحترق فى غيرة مقدسة ضد الخطية لأجل الله .

الناس يحتقرون الأشياء المكسورة لكن الله لا يحتقرها ، إنه يرفض الذبائح الغير سليمة والمكسورة لكنه لا يرفض ذبيحة القلب المنسحق ، ولا يغض الطرف عنه فلا يرفضه أو يتركه .

إن الفريسى المتكبر احتقر قلب العشار المنكسر وافتكر فيه رديئاً لكن الله لم يحتقره ، أيضا نجد ان الله يشهد السماء والأرض لتنظرا إلى القلب المرتعد المنسحق (أشعياء ١٦ : ١ ، ٢) .

أما شريعة موسى لم تفرض ذبيحة أو وقوداً للفاسقين ولا للقتلة ، وداود لم يقرب ذبائح على ما وقع منه ، لأن الذبائح لا تقدر أن تبرره من الخطية ، لأجل هذا حاول أن يستغفر الله بخضوع القلب وانسحاق الروح والتسبيح بتواضع .

١٢ – الصلاة لأجل الآخرين

ويصلى داود أيضا لأجل سلام كنيسة الله فيقول وأنعم يارب بمسرتك على صهيون ولتبن أسوار أورشليم ، عدد ١٨ ، ١٩ .

(١) كل المتعبدين لك وكل الذين يحبون ويخافون اسمك ، إحفظهم من السقوط فى مثل هذه الجراح والخطايا المفسدة

التى تماثل خطاياى . أيد من يخاف اسمك وحافظ عليه .

أولئك الذين جربوا بضيقات روحية يعرفون كيف يشفقون ويصلون لأجل اخوتهم المجربين مثلهم .

(ب) كان داود يتأثر للخطأ الذى أرتكبه ضد اليهودية وأورشليم، عرف كيف أضعفت خطيئته الأيدى وأحزنت قلوب الناس الأتقياء وفتحت أفواه خصومهم وأعدائهم ـ فكان داود كشخص ذى وظيفة عامة خائفاً لئلا تجلب خطاياه دينونة على المدينة والمملكة . لذلك فهو يطلب إلى الله أن يحفظ هذه المصالح التى تحطمت وتعرضت للخطر . إنه يصلى لكى يرفع الله هذا البلاء بسبب خطيئته وأن تستمر النعم وتسير الأعمال التى تهددت بالإيقاف . يصلى ليحسن الله إلى أورشليم التى ربما كانت تحت البناء لكى تبنى وتكمل .

ونلاحظ هنا أنه عندما تشغلنا أعمالنا الخاصة الكثيرة مهما كانت ذات أهمية كبيرة فأمام عرش الله ينبغى أن نصلى لأجل كنيسته ، وان أعتبار الضرر الذى لحق بمصالح غيرنا بسبب خطايانا ينبغى أن يشغلنا لنضع كل الخدمات التى نستطيع أن نؤديها خصوصاً الصلاة لأجل كرامة كنائس الله (عدد ١٩) .

† † †

يقول البطريرك أوثيشيموس عن قول النبي « أنعم يارب بمسرتك ... » إن هذه المسرة فى ظهور ربنا بالجسد فى العالم كما قال بولس الرسول فى أفسس ص ١ : ٩ .

« إذ عرفنا بسر مشيئته حسب مسرته التى قصدها فى نفسه لتدبير ملء الأزمنة ... »

وأما صهيون وأورشليم فهما جماعة المؤمنين ، وأما أسوارها فهم الرسل القديسون الأطهار .

ان النبى بعد ان انتهى الرحمة الإلهية لنفسه اختتم مزموره بالتماسها لرعيته وذلك لكى يشترك شعبه معه برحمة الله... وكأنه يقول انى أبتهل اليك يا الهى ليس لأن ترحمنى أنا فقط بل لأن ترحم أيضا مدينتك التى أقتنى رئيساً عليها وتصلحها حسب مسرتك، فلا تسمح يارب أن تمنع خطاياى أفعال رحمتك نحوها ، ولتبن أسوار اورشليم ولتكن محصنة بحمايتك الإلهية فإنه إن لم يبن الرب البيت فباطلا تعب البنائين وان لم يحرس المدينة فبباطلا تعب الحراس (مز ١٢٦) .

١٣ – الشكر والطاعة

إذا كان الله قد رضى عنه وعن شعبه إستجابة لصلاته فإن شعبه يستطيع تقديم الخدمات لبيته بفرح وابتهاج . ان الشعور

برضاء الله يجعل القلب يتسع فى كل الظروف للتعبير عن الشكر والطاعة ، حينئذ يأتون إلى الهياكل بالمحرقات التى يقدمونها فى طهارة لمجد الله ...

انه مما يسعد الرجل الصالح أن يفكر فى الشركة التى بين الله وبين شعبه فى الاجتماعات العامة وفى تمجيده فى هذه الاجتماعات ...

ان النبى فيما سبق قال « انك لا تسر بالمحرقات » ، وأما الآن فيقول بعد أن تبنى أورشليم حينئذ تسر بذبيحة وقربان – أى تسر بذبيحة ليست من الحيوانات بل ذبيحة العدل ، قرباناً ومحرقات ... وهذه الذبائح تتقرب إلى الله فى كافة كنائس المسيحيين ، وقد تنبأ ملاخى ص ١ ، عن انتهاء الكهنوت اللاوى إذ حل محله كهنوت العهد الجديد .

يقول ملاخى النبى « لانه من مشرق الشمس إلى مغربها اسمى عظيم بين الأمم وفى كل مكان يقرب لاسمى بخور وتقدمة طاهرة لان اسمى عظيم بين الأمم قال رب الجنود » ملا ١ : ١١ .

المحرقات هى كافة الحافظين البتولية .

أما العجول المقدسة على مذبح الله فهى نفوس الشهداء رؤيا ص ٦ .

ويرى البعض ان ذبيحة العدل تعنى الذبائح الروحية أى أفعال

الرحمة نحو القريب وبالأخص الفقراء كيقول القديس بولس للعبرانيين « لا تنسوا الاحسان والشركة فإن الله إنما يرضى بمثل هذه الذبائح » عب ١٣ . وكأنه يقول بعد أن ترفعوا لله ذبيحة التسبيح والتمجيد في كل حين فمع ذلك أقول لكم إني لا أريد أن تنسوا أفعال الرحمة ـ لأن الرب يريد رحمة لا ذبيحة .

والمحرقات الروحية إن هي إلا الصدقات على الفقـــراء والمحتاجين وتقديس الجسد والنفس لخدمة الله وتمجيده حسب قول بولس الرسول « فأطلب إليكم أيها الإخوة برأفة الله أن تقدموا أجسادكم ذبيحة حية مقدسة مرضية عند الله . . . » رو ١٢ : ١ .

يقبلون أفواجاً ليقدموا على مذابحك أفضل الذبائح وأشرفها لأن ذبيحة العجل كانت أشرف الذبائح عند اليهود ، ومن ثم يكون المقصود بتقدمة العجول أشرف الأعمال الصالحة وأكملها .

وقد تقصد بكلمة « عجول » التسبيح هوشع النبي ١٤ : ٢ . « . . . قولوا له إرفع كل إثم واقبل خيراً فنقدم عجول شفاهنا » كما ورد في العبرانيين ص ١٣ : ١٥ ، والمقصود بها ذبيحـــة التسبيح من شفاه معترفة باسمه .

أودع بدار الكتب تحت رقم ٤٠٦٤ لسنة ١٩٧٥